# رواية الحسناء

## على فراش الموت[1]

— « أموت محبة بوالديَّ وحفظاً لميثاق من اهوى فلا اسفاً على الحياة »

كلمات قليلة هي آخر ما نطقت به والروح غاربة عن الجسم النحيل

. . . . .

السكينة تسود وما من محرك للطبيعة سوى النسيم الطيف المتلاعب باغصان الاشجار الجرداء المرتفعة فوق نوافذ المنزل الكبير .

الظلام دامس والجو حالك السواد وارض الجنائن المحيطة بالمنزل بيضاء يكسوها الثلج حول جزوع الاشجار القائمة بجانب اشباحها الهائلة .

هي حالة الهياج والعراك يعقبها الهدوء هي حالة الطبيعة بعد قصف الرعود وهطل الامطار ورش الصواعق يرقد الثلج مستكناً وتحلق الغيوم صامتة فيمر بينها النسيم رسول سلام .

المنزل فخيم يسكنه ذووه والخدم والحشم ، مأهول بمن فيه ولكن ليس هناك من حركة تدل على اثر لمن فيه .

عظمة ومجد وغناء مع التعاسة والحزن والشقاء النور ضئيل واشباح الصور

---

(١) هي الحادثة الاخيرة التي شغلت صقع مدينة ستراسبورغ « عاصمة الالزاس تنديداً باعمال الكونت دي ڤيلناف والكونتس قريبته بما جنيا على ابنتها الكونتس لويز دي ڤيلناف فتناقلتها الصحف وآخر ما جاء بها ان الشاب بحالة خطرة من جراء السم الذي تجرعه . الحادثة كثيرة الوقوع في تلك البلاد ولكن هذه قد استدعت اهمية كبرى نظراً لما كان للفتاة من المنزلة الادبية بين قومها . فقد جاء عنها انها صاحبة ما يقيف عن الخمس موءلفات ولها ديوان شعري مشهور وهي كما تروى دون السابعة عشرة من عمرها واشهر موءلفاتها « حياة العذراء »

المعلقة بجدران الغرفة تتمايل مع تمايل شعاعه الضعيف وليس هناك سوى شبحين يرجعان الهوينى ويتحادثان همساً وقد اسدلا فوق المدخل ستاره الحريري الفاخر بهدوء تام مخافة أن يزعجا الراقدة العزيزة .

يتهامسان والدمع يملو عيونهما والشفقة تخفق في قلبيهما والحنان آثاره ظاهرة بوجهيهما وما هما بالحقيقة الا ظالمان قاتلان لمن يحبان .

سكون وسكينة وهدوء في المنزل . القوم ينامون ولا هم يسامرهم ولكن اين لتلك العيون الرقاد ؟

. . . . .

فوق سريرها الذهبي اللامع وعلى فراشها الحريري الناعم ، بين اغصان الزنبق والسوسن وازاهر الورد والريحان . بين حرقة اليأس ودمعة الامل رقدت وما الراقدة سوى غصن نثرت اوراقه الخضراء وقطعت عنه ماؤه فامتص ودبّت به علل اليبس . كثرت حولها هدايا الاصدقاء والاهل والخلان وهيهات ان تسليها ما صنعتها يد الانسان .

عينان اتخذتا من زرقة السماء لونهما ، فاتكتان طالما فتن بهما عاشق العيون يوم كانتا تتنقلان ذاهلتين بين هذا وذاك هما الان قطعتان من الالماس الفاخر تدبجهما نقطتان من الفيروز الازرق الجميل شاخصتان بلا حراك الى العلاء وقد نثرْ منهما اللؤلؤ على خدّين طالما حسدتهما وردة الوادي الحمراء قبل ان صبغهما النرجس باقلامه الصفراء فوق عنق هو زهرة القطن بعد بزوغها يخيّم فوقه الشعر الذهبي اللامع كأنه حرس يحمي حماه من ان تلطخه نقطة سوداء فتذهب برونق بياضه الناصع على مؤخر الوسادة خصلة منه وفوق الخدّ الايسر مثلها والبقية تزدحم بجانب الجسم النحيل ولا فرق في الرقة بين الاثنين .

لمن تشخص العينان الجميلتان وبمن تجمد نقطتيهما ؟ بشبح يتماثل في عالم

الخيال وتودُّ لو رأته في عالم الحقيقة :

من جنى على الجمال ؟ ومن اردف سهامه بقلب الملاك الراقد ؟ والدان ظالمان !

لا مجد الراغب ولا ماله ، لا فخفخة القصر وجماله ، لا عظمة الوالد ورجاله ، لا ملذّات العالم بأسره لتلذّ لعليلة الفؤاد .

لا الوعد ولا الوعيد ليجعلا بقلبها بعض الفتور والتغيير .

آية جمال وكعبة اداب وتهذيب لا تذكر انها مرة خالفت اوامر والديها المحبوبين لديها كثيراً قبل ان تبتسم لها ثغور الثالثة عشرة وهبت فؤادها الجميل

احبّها واحبته فما لبست أن أشعل الحب في فليهما شررا

اجلسته على عرش فؤادها وهو دونها عزّاً ومالاً ولا يقلّ عنها ادبا وجمالاً .

بسمت لها الثالثة عشرة حتى اواخرها وعبثت بوجهها الرابعة عشرة في اوائلها . كانت تصرف وقتها مع من تحبّ بخلال الاولى فافتضح امرها ومنع عنها ما تشاء بخلال الثانية . شاء والداها اغتصاب فؤادها لغير من تهوى فطاعت صاغرة دون ممانع :

« كما تشآن وما انا الا عاملة بما تأمران » حالة تعيسة بين اعتبار الوالدين والعمل بامرهما ، وبين عبادة الحبيب وعذاب القلب ويأسهما ،

احبته وعاهدته على ان لا تخون وعاهدت اديبها على اطاعة اهلها والعمل بما يريدون .

قبل ان تنتهي المرحلة الاخيرة للسابعة عشرة من عمرها كانت تجتمع بمن تهوى خلسةً وتراسله سراً وبكل يوم بقلبها ما يضاعف حبها

عبدها الحبيب فشاءت ان لا تكون الا عابدة كمعبودة .

ايام قضتها لذيذة كمن تجني عسل النحل يلسعها هم الوالدين ويلذّ لها لقاء الحبيب ، عجزت عن التوفيق بين الامرين فاضناها الملل ولم تأسف على الحياة .

« كما تشآن ، انا عاملة بما تأمران »

طاعة عمياء حملت العذراء لبيع حياتها واعتبار وافر قصف غصن شبابها النضر اكراماً للوالدين فما اقسى الوالدين .نحول وشحوب وذبول ، علة تتملك واصفرار يزين الوجه ، تشكو آلام الجسم وتخفي عذاب الفؤاد الهائل

زهرة لم يكد نسيم الصبا الحار يدب في ربيع حياتها وتتفرج اوراق كمها عنها حتى لفحتها ريح قاسية حملت بطيات حنوها الخارجي سموماً قاتلة فاذبلتها وتركتها فوق فراش اليأس بعد ان قطعت حبال آمالها الطوال .

رقدت وقبل ان يمضي من الليل ثلثه الاخير اغرورقت العينان الزرقاوان بالدموع وتحركت يدها اليسرى الى ما تحت رأسها وتناولت رسماً صغيراً كتبت عليه بيد ترتجف بها الروح الاخيرة كلمات معدودة متقطعة .

« اموت محبة بوالديّ وحفظاً لميثاق من اهوى فلا اسفاً على الحياة »

وما انتهت الكلمة الاخيرة حتى هوت بالرسم فوق شفتيها الذابلتين وقبل ان تحاول ارجاع يديها الضعيفتين ارسلت تنهدات عميقة هي آخر ما تمكن فعله ذلك الصدر الخافق وطارت تلك الروح الخفيفة كانها تقول :

يريدان ان لا افترن بك فانني اطيعهما ويريد قلبي ان لا اكون الا لك فانا اطيعه . اموت الآن وانا لك ، وافارق الحياة قبل الخروج من طاعتهما ، فالى اللقاء ايها الحبيب :

سقط الرسم الصغير بجانبها واغمضت تلك الجفون وما في الغرفة سوى الراقدة بسلام .

شاء ظلم والديها قتلها فحارت ممرضاتها بدائها وعجز عن الداء اطباؤها فداواها ملاك الموت براحة ابدية بعد ان اجرى على خديها عبرة واضرم في فؤادها حرقة فرقدت تئن انة مؤلمة وطارت روحها الى من ينصفها ويجازي ظالميها .

مضى الهزيع الاخير من الليل واقبلت غزالة النهار تميس على هودجها المنير اللامع فخاضت بحار الغيوم السوداء طاردة امامها جيوش الظلام وارسلت من اشعتها سهام خرقت زجاج النافذة فاصابت من الراقدة وجهها الجميل وقد كساه الاصفرار فزادت به بهاء وجمالاً .

. . . . . .

خطوات يكاد لا يشعر بها فاعلها ويد مرتجفة ترفع الستار الحريري ووالد ووالدة يدخلان بهدوء تام يدل شحوب وجههما على انهما لم يناما ليلتهما وهما يظناها تبتسم لهما ، دعوها فلم تجب ، جسا نبضها فلم يجداه ، نظرا الصورة بجانبها فعلما انهما القاتلان وهيهات ان ينفع الندم

علت صيحات الأم وكثرت تنهدات الاب فتراكض جميع من في المنزل وكثر الصياح ولكن هيهات للراقدة ان تسمع او تجيب وصوت من قد بعيد اليها الحياة بعيد .

. . . . . .

لا تزعجوا الراقد بعد مماتها فيكفيها علقم الظلم بحياتها ، دعوها تسير الى حيث اعتقدت سعادتها هناك .

. . . . . .

سار القوم بوقار والنعش تحمله الاكاليل الواردة من جميع اطراف المقاطعة لتعرفرف فوق الضريح ، واروا ذلك الجسد النحيل في التراب وضم القبر الصغير من ضاق بها العالم الكبير

. . . . . .

بسلام ايتها الراقدة ، بسلام يا من رأت تضحية حياتها خيراً لها من ان تتنصب والديها او تخون حبيبها ، بسلام ايتها الراحلة الشريفة فان صدى صوتك يرن بمسامع بنات جنسك مردداً

« اموت محبةً بوالدي وحفظاً لميثاق من اهوى فلا اسفاً على الحياة »

البليغه • مصر العليا •

ميشال حايك